

الفن بين المغالطة الأخلاقية والجمالية دراسة في الفكر الفلسفي المعاصر

د. أحمد شيال

الجامعة المستنصرية

كلية الآداب- قسم الفلسفة

أولاً: تمهيد تاريخي للمشكلة:

تأتي هذه الدراسة لتبين بوضوح، أن هناك نزعات وآراء متطرفة في النظر إلى العلاقة بين الفن والأخلاق، فهذه النزعات تحمل طابع أخلاقي في رؤيتها لوظيفة الفن، فالجميل يرمز إلى ما هو أخلاقي خير، لذا فالنزعة الأخلاقية في الفن تعني أن للأعمال الفنية تأثير في سلوك الناس، وإن بعض هذه الأعمال قد لعب دوراً رئيساً في أخلاق المتذوقين، وأصبح خطراً على التمسك الاجتماعي من خلال نشره الرذائل والانحرافات غير الأخلاقية، لذا وجب منع هذه الأعمال والطلب من الفنانين ان يطبعوا أعمالهم بطابع الخير والدعوة إلى القيم السامية، ومن هنا أصبح الحكم عندهم على هذه الأعمال حكم أخلاقي، ليس معنى ذلك أنهم يرفضون القيم الجمالية، في الفن، وإنما يجعلون الأولوية للأخلاق على حساب الجمال⁽ⁱ⁾

فقد تطرف بعض الفلاسفة في النظر إلى هذه العلاقة حتى وصل إلى حد الإدانة الأخلاقية للفن، كما هو الحال مع أفلاطون وتولستوي. لقد أراد أفلاطون ت(٤٢٨-٣٤٨) من الفن أن يتلاءم مع الأخلاق، وإن يدعو إلى المحبة والخير والسلام، لذا يجب أن يقلع الشعراء عن وصف الأبطال يتصارعون ومنظر الدماء في المعارك، إن مثل هذا الشعر يعلم الأطفال العداء والبغضاء بينما الصدق تعليمهم المحبة، يجب أن نفهم إن الأحقاد خطيئة لا تغتفر، يجب أن نحذف من الشعر التخويف من الموت والشكوى، الآهات التي تصدر عن الأبطال لأنها علامات ضعف والجبانة⁽ⁱⁱ⁾.

فهو لا يسمح إلا بالشعر الذي يروج للفضيلة، وبسبب أنه يروج للفضيلة لا يعد تبريراً كافياً للقصيدة ان تكون جميلة، فالقصائد ممنوعة سواء كانت جميلة أم لا، إذ لم تخدم أغراض الأخلاقيات، ذلك ان أفلاطون يرفض الفن الذي يعادي الأخلاق ويساعد على الانحراف، ما دام للفن تأثير في نفسية الأفراد وبنيات المجتمع بما ينشر من شرور وما يدعو إليه من رذائل. هذا الموقف المتصلب جعل الفيلسوف ولتر ستيس ينتقد أفلاطون ((لم يخطر على بال أفلاطون ان هذا سيؤدي إلى القضاء المبرم على الفن، وإذا كن قد خطر له فأنه لم يعبأ بهم، فأن الشعر إذا لم يكن يوجد تحت نير الأخلاقيات فلا يجب ان يسمح به على الإطلاق، أما ان الفن ليس وسيلة للفلسفة فأنها مسألة أكثر بداهة، ان غاية التربية كلها هي معرفة المثل، وكل موضوع آخر مثل العلم الرياضية والفن لا يندرج في البرنامج التربوي، إلا كأعداد لتلك الغاية، وليست لها قيمة في ذاتها، ويتضح هذا من تعاليم الجهورية، ويتضح أكثر من محاوره المأرية حيث ينتهي حب الموضوعات الجميلة في غاية لا في ذاتها بل محب الفلسفة⁽ⁱⁱⁱ⁾.

إذاً أفلاطون وحد بين الفن والأخلاق، وقد كان له تأثير واضح في تاريخ الفكر الفلسفي بعد، فهذا أفلوطين (٢٠٤-٢٧٥) ربط بين الجمال والخير، وكذلك الحال مع جان جاك روسو (١٧١٢-١٧٧٨)* يرى ان المعارف غير الصحيحة في جميع المجالات تهتم بظاهر الإنسان وترى باطنه، وكلما كان الناس أبعد عن هذه المعارف كانوا أكثر استعداداً للفضيلة. في القرن الثامن عشر ظهر ما يسمى ((بالرسم المخلوق)) رسم يدعو إلى القيم الأخلاقية ومن دعائه جان باتيست غروز^(iv)

الأخلاق في القرن الثامن عشر لعبت دوراً مهماً في توجيه وإرشاد وممارسة الوصاية ((أيها الفنانون، إذا كنتم حريصين على خلود آثاركم، نصحكم بمعالجة المواضيع الشهمة، فكل ما يبشر الناس بانحلال الأخلاق مصيره الزوال والاندثار مهما كان الأثر، موفقاً ورائعاً))^(v) وينتمي إلى هذه النزعة تولستوي^(vi) يرى ان للعمل الفني دوراً مهم في التأثير سلباً وإيجاباً على الناس وقد جعل الخير هو الذي يحدد كل الأشياء، وهو أي الخير لا يحده شيء، وان مفهوم الجمال لا يتطابق مع الخير غالباً يتناقض مع الانتصار للشهوة، أما الجمال فهو أساس كل شهواتنا، ويقدر ما نخضع للجمال بقدر ما نبتعد عن الخير عند تولستوي^(vii)

أما النزعة الجمالية في الفن، جاءت رد فعل على النزعة الأخلاقية في الفن، فهي تمثل احتجاجاً على أولئك الذين يجعلون الفن خادماً للأخلاق وموجه لهدف آخر، مثل أفلاطون وتولستوي، الذي يؤكد النتائج النفسية والاجتماعية للفن، وتعلق هذه النزعة تحرر الفن من النزعة الإرشادية والدعاية، لا يوجد هناك شيء اسمه أخلاقي وغير أخلاقي، بل هناك كتباً جيدة التأليف وأخرى رديئة، فهذه النزعة محاولة لإعادة الاعتبار للفن الذي أخل به أفلاطون وتولستوي، فالإصرار على ان الفنون لا تخدم شيئاً على الإطلاق، هو تصحيح للاعتقاد بأن الفن أداة معينة للإصلاح الأخلاقي إذ أنه يؤدي إلى دعوة انتباهنا إلى القيمة الكامنة للفن الجميل^(viii).

هذه النزعة جعلت الفن مستقل عن الاعتبارات الأخلاقية والاجتماعية، فالفن لا يهدف إلى التعليم الأخلاقي سواء كان عن طريق الإيحاء، أم المثال، فهو يكفي نفسه بنفسه، ويقدر لذاته، لا لأي هدف خارجي، فالعمل الفني لا يقدر بتعبيره عن المثل الأخلاقية، فالفن لا علاقة له إطلاقاً بالأخلاق، فهو سعي إلى الاهتمام بالكمال في الشكل والدقة في التوصيف والاستبعاد وعن الذاتية، أي التزام الموضوعية، وإذا حاول الفن إدخال مضامين أخلاقية، فأن ذلك يؤدي في نظرهم إلى هبوط مستواه وتدهور قيمته^(ix) إذاً الأصل هنا في وظيفة الفن هو تجميل الواقع، ليس المهم تغييره، بل تجميله من حيث ان الجمال هو أعلى درجات خبره، فالمطلوب هو تحويل الواقع إلى واقع جميل^(x)

من الواضح أن هناك تصارع وتضاد بين النزعتين، في رؤيتهم للوظيفة الفن وهناك جدل وقع فيه الفن بين الإدانة الأخلاقية للفن والإدانة الجمالية ولعل أهم ممثلين لهذه النزعة الجمالية (١) تيوفيل جوتييه (١٨١١-١٨٧٢) (٢) الكونت دي ليل (١٨١٨-١٨٩٤) (٣) بودلير (١٨٢١-١٨٦٧).

من الضروري الإشارة إلى أنه هناك نزعة أو اتجاه حاول التوفيق والمصلحة وجعل العلاقة متبادلة بين الفن والأخلاق، نجده عند الفيلسوف عمانوئيل كانت (١٧٢٤-١٨٠٤) الذي ربط بين التأمل في الجمال الطبيعي والاستغراق فيه يؤدي إلى الشعور الأخلاقي^(xi) فالجمال الطبيعي، تلك اللذة التي لا يمكن ان نلقاها في أي جمال فني، أنه جمال يرقق الشعور ويرهف الإحساس وينمي الشعور الأخلاقي^(xii)

فالجميل يرمز إلى الأخلاق، ما دام هدف كل منهما المعقول الذي يعلو على كل اعتبارات اللذة والمنفعة (الجميل هو رمز الخير الأخلاقي، ومن هذه الناحية فقط، هو يُرضي ويدّعي توافق الجميع، وفي هذا تشعر النفس في الوقت نفسه بأنها ازدادت نبالةً من نوع ما وقد سمت فوق مجرد الاستعداد للشعور للذة بواسطة انطباعات الحس، وازدادت أيضاً تقديراً لقيمة الآخرين وفقاً لحكمةٍ مشابهة في ملكة الحكم لديهم، إنه المعقول ((الذي يصبو إليه الذوق))^(xiii) إذاً الجميل يرمز إلى الخير ويبعث فينا سروراً ويلقى موافقة اجتماعية، من خلال الارتفاع بالنفس إلى النبل، وكذلك الحال مع شوبنهاور الذي يوازي بين الجمال والأخلاق، من خلال التمييز بين الإنسان الطيب والإنسان الشرير، فالفن عند الإنسان الطيب هو منطلق يستطيع ان يبلغ القداسة لكننا نقول ان حقيقة وجود أشياء كثيرة تجمع بين الفن والأخلاق لهو أمر غير صحيح، غير ان لقاءهما إنما يجري ويجب ان يجري عند بوابات المدينة لا في برجها العاجي، في قلوب الناس لا في مزار بوذا، وفي ساحة الحياة لا في صحارى الزفانا^(xiv).

ثانياً: الفكر الفلسفي المعاصر بين الإدانة الجمالية والإدانة الأخلاقية:

إن الفكر الفلسفي المعاصر قد شغلته هذه الإشكالية الأخلاق والفن وصعوبة في ترجيح أحد الطرفين، فجاءت الإجابات مختلفة باختلاف المنهج والموقف الفلسفي ونزعة الفيلسوف والمفكر الشخصية والفردية في تقسيم هذه العلاقة، بين الإدانة الأخلاقية للفن والتوظيف الحزبي، والإدانة الجمالية للأخلاق ودورها في التجربة الجمالية متأثراً بالنزعة الأفلاطونية، مثل سانتيانا وحد بين القيم الأخلاقية والجمالية، ولما وأصر جعل الجميل يحوي على الأخلاق، وحد بين الفن والأخلاق، وهذي لو حرص على دور الأخلاق في فهم الفن، بالإضافة إلى هناك نزعات متأثرة بالمنهج مثل كروتشه الذي أنطلق في فهم العلاقة من تعريفه للحدس، وهناك من أنطلق متأثر بالفلسفة الرسمية مثل غارودي. لذا سنتعرض آراء هؤلاء في مجال العلاقة بين الفن والأخلاق .

١. كروتشه (١٨٦٦-١٩٥٢)* نقد المذهب الأخلاقي في الفن:

يتجلى موقفه من العلاقة بين الفن والأخلاق، من خلال تعريفه للفن بأنه حدس. ذلك إن الحدس يتعارض مع الموقف العملي الذي تمثله الأخلاق، فإذا كانت الإرادة قوام الإنسان الخير فليست قوام الإنسان الفنان، وما دام الفن لا ينشأ عن الإرادة فهو إذاً بعيد عن كل تمييز أخلاقي((الصورة قد تعبر عن فعل يحمى أو يذم من الناحية الأخلاقية، ولكن الصورة نفسها، من حيث هي صورة، لا يمكن أن تحمد أو تذم من الناحية الأخلاقية، وليس ثمة قانون جنائي يحكم على صورة بالسجن أو الإعدام، بل ولا ثمة حكم أخلاقي يمكن أن يصدر عن إنسان عاقل ويكون موضوعه صورة))^(xv)، من غير الممكن الحكم على عمل فني في نظر كروتشه أخلاقي أو غير أخلاقي، فوظيفة الفنان بالدرجة الأولى فنية، إلا إذا حكمنا على المربع أو المثلث بأنه أخلاقي أو غير أخلاقي. هو لا ينكر ان النظرية الأخلاقية في الفن موجودة في المذاهب الفنية ولا يمكن أن تندثر. فالمذهب الأخلاقي في الفن، يرى ان غاية الفن ان يوجه الناس إلى الخير، وكره الشر، وإصلاح عاداتهم ويقوم أخلاقهم، وتربية الجماهير وتقوية الروح القومي، ونشر المثل العليا. فكروتشه يرى أن الفن عاجز عن القيام بمثل هذه الأشياء حاله حال الهندسة، فهل من عيب في الهندسة في أنها غير قادرة عن تقديم حلول للمشكلات، إذاً لماذا يحق للهندسة والعلوم الأخرى القول بأنها غير قادرة على تحقيق هذه الأمور ولكن مقابل ذلك على الفن أن يحقق هذه الأشياء، وان على الفن أن يحقق((اللذات، شريطة أن لا تكون ساقطة بشكل مفضوح. وكانوا ينصحون إليه أن يستعمل ماله من سلطان على النفوس في سبيل الغايات الشريفة، وان يدهن المر بالعدل، إن كانوا يسمحون له أن يتعاطى الفحش شريطة أن يكون ذلك في سبيل الكنيسة والأخلاق))^(xvi) أمام كل هذه النظريات يقول كروتشه ((لا أستطيع منع

نفسى من الابتسام))^(xvii) فالمذهب الأخلاقي في الفن هو محاولة لفصل الفن عن مجرد اللذة وإحلال محله منزلة أرفع وأسمى وإن كانت محاولة غير موفقه في نظره، لكن إذا كان الفن خارج نطاق الأخلاق فأن الفنان باعتباره إنسان ليس خارجاً عن نطاق الأخلاق ((إنه لا يستطيع ان يتحلل من واجباته كإنسان، وينبغي له أن ينظر إلى الفن نفسه على إنه رسالة وإن يمارسه كواجب مقدس))^(xviii).

اللذة، المنفعة، الألم، هذه عناصر موجودة في العمل الفني من حيث هو فن، لكن عملية فرض هذه المطالب في الفن ينتج اضطراب الفن، وهنا((الفنان لا يمكن أن يوصم من الناحية الأخلاقية، بأنه مذنب ولا من الناحية الفلسفية بأنه مخطئ، حتى لو كانت مادة فنه أخلاقاً منحطة أو فلسفة منحطة، فهو كفنان لا يعمل ولا يفكر، وإنما يفرض ويصور ويغني، أي يعبر))^(xix)، فهو هنا ينطلق في رؤيته من الوحدة في الفن، أي الصلة بين الفن والأخلاق، فهاهي واحدة ((إن الشاعر يحتفظ بهوى الفن، ولو تحلل من أي هوى آخر، فكذلك يحتفظ في الفن بالشعور الواجب، الواجب نحو الفن، وكل شاعر يكون أخلاقياً في اللحظة التي يبدع فيها مادام يقوم بواجب مقدس))^(xx).

لكن ما السبب في الدوافع الأخلاقية، فكروتشه يرى ان الدوافع الأخلاقية في الفن ناتجة عن:

١ - القلق من مظاهر الفن الزائفة.

٢ - الخوف من بعض مظاهر فن حقيقي بريئة كل البراءة.

لكن ما الحل. يرى كروتشه إن الحل الأفضل الأسلم هو الأخذ بمبدأ الحدس الخالص المجرد من كل أنواع الميول حتى الميول الأخلاقية، فهو سلاح يستخدم في هجماتهم المشروعة من ناحية ويطمئن مخاوفهم من ناحية ثانية وهنا((نستطيع ان نستبعد لا أخلاقية الفن بالفعل، بدون أن نقع في حماقات المذهب الأخلاقي، أما بغير ذلك فلن نصل إلى غير ترديد صور لحيثيات الحكم الذي نطقته به محكمة باريس في القضية التي رفعت على مؤلف رواية مدام بوفاري: حيث إن رسالة الأدب هي ان يزين الفكر ويصلحه بسموه بالعقل وتهذيبه للأخلاق))^(xxi) فالفن كلما كان أقدر في التعبير عن الواقع، كلما كان أقوى على استخراج الأخلاق من الأشياء نفسها((الوجدان الفني ليس بحاجة إلى الوجدان الأخلاقي يستمد منه العفة، إنه ينطوي في ذاته على هذه العفة، التي هي الحياء، والرهافة الفنية، ويعرف متى يجب ان يستعمل من صور التعبير غير الصمت))^(xxii) الفنان عندما يتجاوز الحياء ويخرج على الوجدان الفني ويتناول موضوعات غير فنية، فهو قد ارتكب جريمة أخلاقية، ولكنها ليس الحالة اللاأخلاقية الوحيدة ((إن إدخال الأمور الشهوانية البذيئة في الفن ليس هو الحالة

للأخلاقية الوحيدة، وليس هو دائماً أسوأ هذه الحالات بالفعل، ففي رأيي، إن دس الفضيلة فيه على نحو أحق هو أسوأ هذه الحالات، لأنه يجعل الفضيلة نفسها حمقاء^(xxiii)

٢. غارودي * - القيمة الأخلاقية في الفن:

الفن خلق إبداعي يتجلى فيه الواقع والوجود الإنساني، لذا يدعونا غارودي أن يكون الفنان ذو رؤية مستقبلية من أجل أن تكون أعماله ذات طابع نضالي حزبي قومي يساعد في بناء مجتمع، دولة..... الخ ولذا يستعير ما طرحه بودلير^(xxiv) من تسأل حول قدرة الفنان، الكاتب، في كيفية دفع الناس إلى الفضيلة، فالفن ذو قيمة أخلاقية، لكن هذه القيمة ليست توجيه ومواعظ ونصائح بل هي إنارة الوعي. ((نحن نتمنى أن يعي الكاتب أو الفنان بوضوح أبعاد المستقبل حتى تكتسب أعماله دلالة نضالية. على أننا إذا تمسكنا بهذا المعيار وحده لو وجهنا بنفس السؤال الذي طرحه بودلير: هل يبذل الكاتب الفاضل جهداً كافياً من أجل تحبيب الناس إلى الفضيلة، إن القيمة الأخلاقية للفن لا تتمثل في إسداء النصائح أو توجيه المواعظ بل في أيقاظ وعينا^(xxv))).

فالملاحظ أن غارودي لم يوجه إدانة أخلاقية للفن ولا بالغ في تقدير القيمة الجمالية، بل هما معاً الأخلاق والفن والجمال في خدمة غرض آخر هو نوعاً ما غريب كأن يكون توظيف حزبي وهو جعل الفن لا يقدم أجوبة جاهزة للعوائق الفكرية بل دليل لوعي الإنسان، يثير فيه طاقاته وينبه إلى الطرق الصحيح.

٣. هنري لوفافر^(xxvi). البعد الضمني للأخلاق:

وهو يقرأ أفلاطون يصل إلى أنه من غير الممكن الحكم على عمل فني بالحكم الأخلاقي، ذلك إن العمل الفني يحتوي ضمناً على بعد أخلاقي يساعد على التماسك الاجتماعي.

((لا يمكن الحكم على أثر فني تبعاً لقوانين الأخلاق والحق، ورغم أن الأثر الفني ليس غريباً عن هذه القوانين باعتباره يتدخل في الحياة الاجتماعية والسياسية ويسمح لنا بتحقيق انسجاماً بين العادات والعقل، وهو انسجام ضروري للمواطن وسعادته، لذلك على الفنانين أن يقدموا إلى المجتمع أناشيد دينية، وبالغناء والرقص يخضع البشر للعقل غريزة حيوانية الحاجة لأنفاق طاقاتهم والتعبير عن بهجتهم بالحياة^(xxvii))).

٤. جورج سانتيانا (١٨٦٣ - ١٩٥٢)^(xxviii): الوحدة بين القيم الأخلاقية والجمالية

إن العلاقة وثيقة الصلة بين الأحكام الجمالية والأخلاقية، ولكن الأمر بحاجة إلى إيضاح. لذلك يعقد لنا سانتيانا بعض الفروق بينهما:

١ - الأحكام الجمالية إيجابية، بمعنى إدراك لما هو خير.

- ٢ - الأحكام الأخلاقية سلبية، أي أنها إدراك للشر.
- ٣ - الأحكام الجمالية، في حالة إدراك الجميل ستنبع من ذات الموضوع وبعيد عن أي منفعة.
- ٤ - الأحكام الأخلاقية إيجابية، الإدراك الواعي للفائدة التي تترتب على التجربة.^(xxix)

هذه التمايزات بحاجة إلى بعض الإيضاح.

يرفض سانتيانا تعريف الأخلاق بأنه تقوم على مبدأ اللذة، فالمبدأ القائل ان غاية السلوك هي اللذة، وجعل منها أحياناً هي الفضيلة، ذلك ان الأخلاق في أعرق قواعدها وأصلها تجنب الألم. والواجب الهروب من تلك الشرور المرعبة التي نتعرض لها مثل الموت والجوع، المرض، العزلة، الاحتضار، حق ممارسة تقدير الجمال تكون عندما نتخلص من الشر وعبودية الخوف، لذلك تكون إيجابية وسلبية القيم الجمالية في الأخلاق، وحتى القبح ليس مصدراً لألم حقيقي، ولكن عندما تصبح مشاعر تهديد الحياة والوجود شراً حقيقي وبالتالي تأخذ منه موقفاً أخلاقياً. وهنا فالشيء الجميل عند سانتيانا الذي يبعث على اللذة لا يكون موضوع خلقي حقيقي^(xxx)

ذلك ان جميع القيم، قيم جمالية بمعنى من المعاني، ذلك يكون بالتخلص من الشرور، وبالتخلص سوف لن يكون سوى اللذات الجمالية التي هي مصدر السعادة، ما دامت القيم تملك قيمتها في ذاته، ويصبح الشيء النافع بالنسبة إلى نتائجه، ((فحينما لا تؤدي الحقيقة إلى أية منفعة عملية تصبح المتعة التي تولدها في النفوس متعة خيالية، وتصبح قيمتها قيمة جمالية، شأنها من شأن المنظر الطبيعي))^(xxxi)

إذاً وظيفة الجمال تتعلق بالمتعة، بينما وظيفة الأخلاق تتعلق بتجنب الشرور والسعي وراء الخير. لكن ما معنى إن تمارس الأخلاق سلطتها على الجمال.

أن وظيفة العقل الأخلاقي هي المقارنة بين المصالح والاهتمامات ومحاولة التوفيق في سبيل الوصول بالطبيعة البشرية على السعادة، فمسألة جداً طبيعة ان تقيد الفضيلة الانفعالات ليس لأنها عدوانية بل لأنها تهتم بجميع الانفعالات بصورة طبيعية. لذا فاللذة الجمالية تعتمد على مقدرة الفضيلة في تأثيرها على سعادتنا. هذا التأثير يختلف باختلاف البلاد والأزمنة ولا والأمكنة وهو اختلاف ينعكس على الأهمية التي تعطى للمطالب الجمالية في تنظيم حياتنا^(xxxii)

الإحساس الأخلاقي لا يحدد لنا القيمة الأخلاقية للجمال فحسب بل يحدد وجودها ذاته من حيث هي خير جمالي. فالشيء الذي يبعث على اللذة يمكن ان يتحول إلى النقيض عندما يتعارض مع الإحساس الأخلاقي، فالمبالغة في الخطاب لا عيب منه أخلاقي، كما هو عيب من الذوق، على

الفن ان لا يبدع جمال مجرد بل عليه أثارة اهتمام العالم إلى هذه الأشياء التي يتسابق عليها، وعليه معرفة كيف يبث جاذبية بين موضوعات العاطفة الإنسانية^(xxxiii)

٥. غادامير^(xxxiv) - تجلي الجميل:

مفهوم الجميل لا يزال يحتفظ بشيء من المعنى اليوناني القديم الذي يشير إلى ما هو خير وحسن، ويدل أحياناً على معنى الخلق الجميل أو حسن الخلق ((الجميل يمكن تعريفه على نحو مقتع باعتباره شيئاً ما يحظى باعتراف الجميل وقبول شامل، ولذلك فإنه مما يميز حسن الطبيعي بالجميل، أنه حتى لا نستطيع معه ان نسأل لماذا يسرنا فنحن لا يمكن إن نتوقع أي طائل من وراء الجميل، حيث أنه لا يخدم أي غرض، فالجميل يحقق ذاته بنوع من التحدد الذاتي، ويتمتع بتمثيله الذاتي الخاص، وحسبنا هذا القدر من الإيضاح لكلمة الجميل))^(xxxv) فهو يرفض العلاقة بين الجمال والمنفعة. فالجميل واضح بذاته بمعنى يتجلى بنفسه بدون غاية أو وسيلة تجعله جميل.

٦. جان برتلمي – الوحدة بين القيم الأخلاقية والجمالية:

يتساءل برتلمي عدة تساؤلات، هل يكون للفن وظيفة أخلاقية، هل يجب ان يكون الفن خادم للأخلاق، أم على العكس يتحرر منه، هل من الجائز ان يجمع بين الدعوة الأخلاقية والجمال الفني، وبأي حد وشروط.

يرى برتلمي ان الفن لا يخضع لأي مذهب وإلا تدهور، ليس عليه الالتزام بالقواعد العامة للأخلاق، فإذا كان هدف الفن تصوير الحياة النبيلة، فماذا عن تصوير الشر، ان في هذا نفياً للفن، إذا حقيقة الفنان الأخلاقية هي ((في قوة تصويره وفي حقيقته))^(xxxvi) هدف الفن صنع الجمال أكثر من تصوير الحياة، لذا عليه ان يكون حراً طليقاً، فإذا بحث الفنان عن هدف أخلاقي فإنه يقتل من قوته الشاعرية، وبالتالي سيكون عمله رديئاً، ذلك ان الجمال يحوي في ذاته بعداً أخلاقياً أرفع من الذي يدعو إليه الفنان وهو في هذا المعنى يستشهد بفلوبير ((أن أخلاقية الفن تنحصر في الجمال ذاته، وليست هناك للفن موضوعات جميلة وأخرى قبيحة ما دام الأسلوب وحده طريقة مطلقة في رؤية الأشياء وبتعبير آخر نجد ان الجمال يمتص الخير ويصبح علم الأخلاق تابعاً لعلم الجمال))^(xxxvii)، هل يساعد النشاط الإبداعي على تحقيق الخير أم لا ؟ ما دام الإنسان هو فنان، لكن ليس إنساناً عادياً، لذا عليه ان يتابع الهدف الذي خلق لكل حياة بشرية، وهي تحقيق الخير الأخلاقي. ما دام الفن موجهاً للجمهور، هل تأثيره حسناً أم رديئاً؟ هل يعمل على إصلاح أخلاقنا أم

إفسادها ؟ هل الاستمتاع بالأعمال الفنية هو عقبة في ممارسة الفضيلة أم إنقاذاً لها؟ يرى برتلمي ان الإجابة على هذه الأسئلة صعبة وعسيرة خصوصاً إذا كان العمل الفني يحوي عناصر جمالية فقط، فللعمل موضوع واتجاه عاطفي وأيديولوجي، ولذا يحق لنا أن نتساءل ((عما إذا كان أخلاقياً أم لا أخلاقياً بصفته عملاً جميلاً. ويمكننا أن نتساءل عما إذا كان محتواه غير الجمالي يكتسب أو يفقد من قيمته الأخلاقية لكي نعامله معاملة جمالية))^(xxxviii). وان التفرقة بين فن منحط وفن عظيم، عند برتلمي بحاجة إلى إعادة نظر لأنه هناك بعضاً من الفن المنحط يرى، وحتى الرقص لا ينبغي أن ننظر إليه نظرة احتقار، فأخلاقية الرقص تعتمد إلى حد كبير على العادات والتقاليد ونوايا الراقصين ويرفض القول أنه كلما ازداد الجمال ازدادت الأخلاقية ويات ميزة الفن العظيم هي ((هو انه يصور ما يلمسه حتى ولو كانت المادة من أحقر ما يمكن أن تكون، إذ كم من الأعمال الفنية الكبرى لا يمكن ان تغلق بال شديد الحرص))^(xxxix).

ومن الضروري عدم الخلط بين رجال الأخلاقية والأخلاقية، فرجال الأخلاقية مصابون بلا التشوه المهني)) وضيف التفكير وماسة مبالغة فيها وعلى سبيل المثال -روسو - مصاب بجرثومة كراهية المجتمع، والعقلية القديمة التي ترفض تسمية القط، قطعاً. بالتأكيد كل هذه لا يساعد على إصدار أحكام صحيحة بشأن الفن والفنانين^(xl)، بالإضافة إلى ان الداعي قد يكون ضيف الأفق لدرجة يتهم باخ، وموزارت وبتهوفن بأنهم يدسون السم للجمهور، أو إن المصورين والنحاتين قد طرخوا موضوعات منافية للأخلاق ويصل برتلمي إلى نتيجة مفادها((يجدر بنا ان نفحص الأعمال الفنية من جميع الفنون في مجموعها، وسنرى ان ما يضر بالأخلاق منها ضئيل في مجموعة))^(xli).

إن الربط بين الأخلاق والفن، قد لا يكون مفيد من الناحية الميتافيزيقية، التطابق الميتافيزيقي بين الجمال والخير، لأن هذا التطابق لا يشاهد بسهولة في هذا العالم، بل نحن نشعر به، ولكن عندما يقال ان العمل طيب وجميل على السواء، عندئذ لا يمكن فصل القيمة الأخلاقية و الجمالية، فالتأمل يخلصنا من التفكير البذيء، والكبرياء والحسد والحقد، وكل الخطايا الرئيسية بمعنى ((انه كلما ازدادت قدراتي وثقافتي ورفعت من حساسيتي إزاء آثار الفن، ازدادت قدراتي على التخلص من موضوع اللوحة أو القصيدة، أو القصة أو المسرحية، وازدادت حصانة نتيجة لهذا ضد الضرر))^(xlii). فالعمل الفني يكون خير من خلال نقل العاطفة إلينا، بالإضافة إلى كونها جميلة مثل كل شيء. لكن ما هو واجب الفنان؟

أولاً: التأثير:

فالفنان مسؤول عن التأثير الذي يمارسه، ويبقى عدم المبالغة بالجانب الأخلاقي، وكذلك رفق القول بأن تأمل الأعمال الفنية يساعدنا على التخلص من الجرائم. لأنه تأمل العمل الجميل يحتاج إلى وقت قصير، ومكافحة ميولنا بحاجة إلى وقت. فالعمل إما يطبع اتباعه بطابع أخلاقي، أو يتمتع باستقلالية، وبين هذا وذلك هناك منطقة توتر والحل هو التوفيق بين الاثنين^(xliii)

ثانياً: الحكم الأخلاقي يسبق الحكم الجمالي:

ضرورة اعتراف الفنان بأن المطالب الأخلاقية تعلو على المطالب الجمالية، والسبب في ذلك يمكن الحديث عن ما بعد الجمال وما بعد القبح، لكن لا ممكن الحديث عن ما بعد الجمال والقبح معاً، وإن حرية الأديب لها حدود وليس من حقه، أن يكتب كما لو لم تكن لأفعاله وأقواله نتائج نهائية.

((تعقيب))

تلك كانت النزعات التي سيطرت على الفكر الغربي، لكن هذه النزعات قد واجهت نقداً شديداً، فمن عيوب النزعة الأخلاقية والجمالية كذلك، هي تطبيق معايير أخلاقية صارمة على العمل الفني، مما أدى إلى تضيق في الموضوعات المسموح بها، وقمع الإبداع، في مقابل النزعة الجمالية، التي رفضت أي توظيف أخلاقي للفن، ورفض كل الاعتبارات الاجتماعية والنفسية للفن، فالملاحظ هنا عنف ورغبة قوية في إقصاء الآخر المختلف في الرؤية والموقف الفلسفي، وهو غير مبرر أخلاقياً وفنياً، مادام الفن خلق إبداعي متجدد وإعادة هيكلة الأشياء من جديد ، هناك نقاط تشابه واختلاف بين الفن والأخلاق.

أ - الجميل سرور مباشر يكون من خلال الإدراك المباشر للأشياء من حيث الأخلاق تعيش هذا السرور في التصور، بالإضافة إلى ان الجميل والأخلاق بعيدين عن المنفعة والمصلحة.

ب -المعايير الأخلاقية أصبحت من المرونة، بحيث لا يضرها الفن، أصبحت هذه المعايير أكثر تسامحاً وإنسانية، من السابق وبالتالي لا توجد مشكلة كما يرى جيروم ستولينيز.

ج - يمكن أن يعبر العمل الفني عن قيم أخلاقية بشرط خضوع هذه القيم لمتطلبات العمل الفني الجمالي.

د - الفن يتميز عن الأخلاقيات، في إن الأخلاقيات معنية بالفعل والفن بالإنتاج، تقوم الأخلاقيات بالنشاط ذاته، ويقوم الفن في ذلك الذي ينتجه النشاط، ومن ثم إن الحالة العقلية للمثل ودوافعه ومشاعره هامة في الأخلاق لأنها جزء من الفعل ذاته، لكنها لا أهمية لها في الفن، فالشيء الجوهرى في الفن أن يكون العمل الفني جيد مهما كان إنتاجه على حد تعبير ستيس.

يبقى السؤال المهم والضروري، إلى من ينتمي هذا المبحث، هل هو جمال بالدرجة الأولى ويكون فرع من فلسفة الفن، أم هو أخلاقي ويكون فرع من فلسفة الأخلاق، ذلك ان الذين أدانوا الفن انطلقوا من موقف جمالي صرف، وبالتالي نلاحظ عملية رفض متبادلة لكلا الطرفين، لكن لماذا الأخلاق والفن؟ فالبعض اعتبرها مسألة ثانوية وقديمة ولا داعي لها في الفكر المعاصر، وهي نوع من الرغبة في المحافظة على النظام القيمي من خلال السيطرة والإشراف على عمليات التفكير، فالجمال والأخلاق يبحثان عن شيئين مختلفين، وهنا أصبحت المشكلة ثانوية، ولكننا نعتقد إن هذه المشكلة يجب إن تكون لها الأولوية ولها الصدارة في المباحث الفلسفية الجمالية الفنية، لأن الفيلسوف والفنان، مطالب بالإنصات إلى تاريخ الفلسفة وتاريخ الفن، فمن وجهة نظر فلسفية لم يعد أمام الفيلسوف إلا الفن، والأخلاق وتاريخ الفلسفة فالتفكير الفلسفي قائم على الحرية وفتح حوار مع النوافذ الأخرى، ويرفض القمع ويدعو إلى التعدد والاختلاف، فالأخلاق أصبحت حاجة ضرورية في عصر الكوارث والانقلابات الكونية وفقدان السيطرة على كل شيء والتهديد النووي والحروب والمجاعات والقتل الجماعي وإلغاء الآخر والاغتراب وكل الآفات الاجتماعية والاقتصادية، لذا لابد من تعاون فني أخلاقي من أجل إعادة بناء الأشياء من جديد، لا تهديم من قبل الأخلاق للفن والعكس أيضاً. فما المانع من يكون عمل فني جميل وخير وما المانع من أن يكون عمل أخلاقي جميل، لابد أن يكون هدف الفن والأخلاق علاجاً لنا من كل الأمراض والكوارث، من أجل إنقاذنا من هذا الخراب الكوني، بل يساعدنا على فهم وتقبل هذا الخراب الكوني، وكشف الزيف الأخلاقي، وفهم الدوافع والمعتقدات، ذلك ان الفن غير مطالب بتقديم إجابات أخلاقية، والأخلاق غير مطالبة بتقديم إجابات جمالية، بل الفن دعوة إلى إثارة أسئلة أخلاقية، والأخلاق دعوة إلى إثارة أسئلة جمالية.

الهوامش

(i) الشكرجي، جعفر، الفن - الأخلاق في فلسفة الجمال، ص ١٥، دار حوارات، ط(١)، دمشق ٢٠٠٢

(ii) أفلاطون، الجمهورية، ص ٢٥٨، ت: فؤاد زكريا، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة - ١٩٧٤.

(iii) ستييس، ولتر، تاريخ الفلسفة اليونانية، ص ١٩٥، ت: مجاهد عبد المنعم مجاهد دار الثقافة

للنشر والتوزيع، القاهرة - ١٩٨٤.

* جان جاك روسو، فيلسوف ومصلح اجتماعي فرنسي، تعد أعماله من أهم الأسباب لاندلاع الثورة الفرنسية، عرف بتقديس الطبيعة، أهم كتبه: (١) في العقد الاجتماعي (٢) آميل.

(iv) جان باتيست غروز، رسام فرنسي، لوحاته ذات موضوعات عاطفية أو أخلاقية في المحل الأول،

من أشهر أعماله، المخطوطة القروية، اللعنة الأبوية، الإبريق المكسور.

- (v) ريشار، اندريه، النقد الجمالي، ص ٧٤، ت: هنري زغيب، منشورات عويدات، بيروت ١٩٧٤.
- (vi) تولستوي، روائي وفيلسوف روسي ومصلح اجتماعي، أهم الحرب والسلام وآناكا رينينا .
- (vii) الشكرجي، جعفر، الفن والأخلاق في فلسفة الجمال، ص ٣٨، سبق ذكره.
- (viii) ستولينيز، جيروم، النقد الفني، ص ٥٣٠، ت: فؤاد زكريا، المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت.
- (ix) الشكرجي، جعفر، الفن والأخلاق في فلسفة الجمال، ص ٤٦ سبق ذكره.
- (x) شيخ الأرض، تيسير، الفحص عن أساس الفنون، ص ٢١، منشورات اتحاد الكتاب العرب ١٩٩١.
- (xi) إبراهيم، زكريا، كانت وفلسفة النقدية، ص ٢٧٥، دار مصر للطباعة، ط (٢) القاهرة
- (xii) مصطفى، زياد كمال، الأسس الجمالية في الفلسفة النقدية عند كانت، ص ١٤٠، رسالة ماجستير، جامعة الكوفة، كلية الآداب ٢٠٠١م.
- (xiii) ينظر كانت - نقد ملكة الحكم، ص ٢٩١، ت: غانم هنا، المنظمة العربية للترجمة ط (١) بيروت ٢٠٠٥ .
- (xiv) نويس، النظريات الجمالية، ص ١٧٨، ت: محمد شقيق شيا، منشورات بحسوت الثقافية، ط (١) بيروت - ١٩٨٥ .
- * بندتو كروتشه. فيلسوف ورجل سياسة إيطالي. كان له تأثير عميق في بلاده، أخذ من هيجل مفهوم الديالكتيك لكن مفهومه عن الحياة المعاشة جعله يرفض المثالية المطلقة. مؤلفاته الرئيسية، الجماليات كعلم تعبيرى ١٩٢٠، فلسفة الممارسة ١٩٠٩.
- (xv) كروتشه، المجلد في فلسفة الفن، ص ٣٠، ت: سامي الدوربي، دار الفكر العربي، ط (١) ١٩٤٧.
- (xvi) كروتشه، المجلد في فلسفة الفن، ص ٣٢ سبق ذكره.
- (xvii) المصدر نفسه، ص ٣٢.
- (xviii) كروتشه، المجلد في فلسفة الفن، ص ٣٣، سبق ذكره.
- (xix) المصدر نفسه، ص ٩٣.
- (xx) المصدر نفسه، ص ٩٦.
- (xxi) كروتشه، المجلد في فلسفة الفن، ص ١٧٠ سبق ذكره.
- (xxii) المصدر نفسه، ص ١٧٢

(xxiii) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

* غارودي/ فيلسوف فرنسي معاصر ماركسي النزعة في بداية حياته كتب أهم كتبه وهو نظرية المعرفة المادية، ثم طرد من الحزب الشيوعي الفرنسي سبب كتابه الأمل، ثم إلى الديانة اليهودية والمسيحية وأخيراً الإسلامية .

(xxiv) بودلير (١٨٢١-١٨٦٧) شاعر فرنسي، عُرف بمنزعه الإباحي، يعتبر واحد من أبرز الدعاة للأخذ بنظرية الفن للفن، كان لنظريات الجمالية أبعد الأثر في نشوء المدرسة الرمزية، أهم أعماله: أزهار الشر.

(xxv) غارودي، واقعية بلا ضفاف. ص ٢٢٨، ت: حليم طوسون، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة - ١٩٦٨

(xxvi) هنري لوفافر - فيلسوف فرنسي، يساري، من أهم كتبه المترجمة إلى العربية، ما الحداثة كارل ماركس، نهاية التاريخ.

(xxvii) لوفافر، هنري، في علم الجمال، ص ١٤، ت: محمد عيتاني، منشورات دار المعجم العربي، بيروت.

(xxviii) جورج سانتيانا. فيلسوف وشاعر وناشر ممتاز، أسباني المولد، أميركي التربية، ولد في مدريد لأبوين أسبانيين بتاريخ ١٦ ديسمبر سنة ١٨٦٣. عاش في شرقي أميركا، درس في كلية هارفرد وتخرج منها سنة ١٨٨٦. حصل على الدكتوراه من نفس الكلية. توفي ١٩٥٢. كان واقعياً تجريبياً ولكن من نوع خاص لأن واقعيته مشوبة، بمثالية متعالية قوية، ولهذا ينعت بانه واقعي نقدي. أنظر، عبد الرحمن بدوي، موسوعة الفلاسفة، ص ٥٨١، جزء أول المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط (١) ١٩٨٤.

عرف الفلسفة تعبير رمزي عن القيم والمفاهيم التي تشكل نهجاً للحياة، من أشهر آثاره حياة ١٩٠٥، وعوالم الجود ١٩٢٨.

(xxix) سانتيانا، جورج، الإحساس بالجمال، ص ٥٠، ت: محمد مصطفى بدوي، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، بلا.

(xxx) ينظر: سانتيانا، جورج، الإحساس بالجمال، ص ٥٢، ت: محمد مصطفى بدوي، مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة.

(xxxi) المصدر نفسه، ص ٥٥.

- (xxxii) سانتيانا، جورج، الإحساس بالجمال، ص ٢٣٥. سبق ذكره.
- (xxxiii) المصدر نفسه، ص ٢٣٧.
- (xxxiv) هانس جورج غادامير. يعتبر هانس جورج غادامير المولود ١٩٠٠ من الشخصيات التي تسيطر على المشهد الفلسفي الألماني، قدم سنة ١٩٢٩ أطروحة للدكتوراه مع مارتن هيدغر، خلف سنة ١٩٤٩ كارل باسيرز في منصب أستاذ كرسي لتدريس الفلسفة في جامعة هايدلبرغ من أهم أعماله المترجمة إلى العربية بداية الفلسفة، تجلي الجميل.
- (xxxv) غادامير، تجلي الجميل، ص ٨٥، ت: سعيد توفيق، المجلس الأعلى للثقافة والفنون، القاهرة، ١٩٩٧.
- (xxxvi) برتلبي، جان، بحث في علم الجمال، ص ٤٦١، ت: نظمي لوقا، دار نهضة مصر.
- (xxxvii) برتلبي، جان، بحث في علم الجمال، ص ٤٦١، سبق ذكره.
- (xxxviii) المصدر نفسه، ص ٤٨٤.
- (xxxix) المصدر نفسه، ص ٤٨٦.
- (xl) برتلبي، جان، بحث في علم الجمال، ص ٤٨٧. سبق ذكره.
- (xli) المصدر نفسه، ص ٤٨٧.
- (xlii) المصدر نفسه، ص ٤٩٠.
- (xliii) ينظر المصدر نفسه، ص ٥١٢.

المصادر

١. اندريه ريشار، النقد الجمالي، ت: هنري زغيب، عويدات - بيروت. ١٩٧٤.
٢. أفلاطون، الجمهورية،
٣. بندتو كروتشه، المجلد في فلسفة الفن، ت: سامي الدوري الفكر العربي، ط (١). ١٩٤٧.

٤. تيسير شيخ الأرض، الفحص عن أساس الفنون، منشورات اتحاد الكتاب العرب - ١٩٩١.
٥. جورج سانتيانا، الإحساس بالجمال، ت: محمد بدوي، مكتبة الانجلو المصرية - القاهرة.
٦. جورج هانس غادامير، تجلي الجميل، ت: سعيد توفيق المجلس الأعلى للثقافة والفنون، القاهرة ١٩٩٧.
٧. جان برتلمي، بحث في علم الجمال، ت: نظمي لوقا دار نهضة مصر.
٨. جعفر الشكرجي، الفن والأخلاق في فلسفة الجمال، دار حوارات، ط(١) دمشق ٢٠٠٠.
٩. جيروم أستولينيز، النقد الفني دراسة جمالية فلسفية ت: فؤاد زكريا، المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت.
١٠. زكريا إبراهيم، كانت والفلسفة النقدية، دار مصر للطباعة ط(٢) القاهرة - ١٩٧٢.
١١. زياد كمال مصطفى، الأسس الجمالية في الفلسفة النقدية عند كانت - رسالة ماجستير، جامعة الكوفة، ٢٠٠١.
١٢. عبد الرحمن بدوي، موسوعة الفلاسفة، جزء(١) المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط(١) ١٩٨٤.
١٣. غارودي، واقعية بلا ضفاف، ت: حليم طوسون دار الكاتب العربي للطباعة والنشر - القاهرة - ١٩٦٨.
١٤. كانت، نقد ملكة الحكم، ت: غانم هنا، المنظمة العربية للترجمة - ط(١) ٢٠٠٥.
١٥. نوكس، النظريات الجمالية، ت: محمد شفيق شيا منشورات بحسوت الثقافية، ط(١) بيروت ١٩٨٥.
١٦. ولتر ستيس، تاريخ الفلسفة اليونانية، ت: مجاهد عبد المنعم مجاهد، دار الثقافة للنشر والتوزيع - القاهرة ١٩٨٤.
١٧. هنري لوفافر، في علم الجمال، ت: محمد عيناتي منشورات دار المعجم العربي - بيروت.